تفسير ابن كثير

يقول تعالى مقرعا للمشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد والأوثان واتخاذهم البيوت لها مضاهاة للكعبة التي بناها خليل الرحمن عليه السلام { أفرأيتم اللات ؟ } وكانت اللات صخرة بيضاء منقوشة وعليها بيت بالطائف له أستار وسدنة وحوله فناء معظم عند أهل الطائف وهم ثقيف ومن تابعها يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش قال ابن جرير : وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم ا فقالوا اللات يعنون مؤنثة منه تعالى ا عن قولهم علوا كبيرا وحكي عن ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس أنهم قرأوا اللات بتشديد التاء وفسروه بأنه كان رجلا يلت للحجيج في الجاهلية السويق فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه وقال البخاري : حدثنا مسلم هو ابن إبراهيم حدثنا أبو الأشهب حدثنا أبو الجوزاء عن ابن عباس ابن قال الحجاج سويق السويق يلت رجلا اللات كان : قال { والعزى اللات } : قوله في هماB جرير : وكذا العزى من العزيز وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة وهي بين مكة والطائف وكانت قريش يعظمونها كما قال أبو سفيان يوم أحد : لنا العزى ولا عزى لكم فقال رسول ا صلى ا عليه وسلّم : [قولوا ا مولانا ولا مولى لكم] .

وروى البخاري من حديث الزهري عن حميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم : [من حلف فقال في حلفه واللات والعزى فليقل لا إله إلا ا ومن قال لصاحبه تعال أقامرك فليتصدق] فهذا محمول على من سبق لسانه في ذلك كما كانت ألسنتهم قد اعتادته في زمن الجاهلية كما قال النسائي : أخبرنا أحمد بن بكار وعبد الحميد بن محمد قالا : حدثنا مخلد حدثنا يونس عن أبيه حدثني مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال : حلفت باللات والعزى فقال لي أصحابي : بئس ما قلت ! قلت هجرا فأتيت رسول ا صلى ا عليه وسلّم فذكرت ذلك له فقال : [قل لا إله إلا ا وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير وانفث عن شمالك ثلاثا وتعوذ با من الشيطان الرجيم ثم لا تعد] وأما مناة فكانت بالمشلل عند قديد بين مكة والمدينة وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظمونها ويهلون منها للحج إلى الكعبة وروى البخاري عن عائشة نحوه وقد كان بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة غير هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها .

قال ابن إسحاق في السيرة : وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة لها سدنة وحجاب وتهدى لها كما يهدى للكعبة وتطوف بها كطوافها بها وتنحر عندها وهي تعرف فضل الكعبة عليها لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم عليه السلام

ومسجده : فكانت لقريش ولبني كنانة العزى بنخلة وكان سدنتها وحجابها بني شيبان من سليم حلفاء بني هاشم قلت : بعث إليها رسول ا صلى ا عليه وسلّم خالد بن الوليد فهدمها وجعل يقول : .

يا عزى كفرانك لا سبحانك إني رأيت ا قد أهانك .

وقال النسائي : أخبرنا علي بن المنذر أخبرنا ابن فضيل حدثنا الوليد بن جميع عن أبي الطفيل قال : لما فتح رسول ا صلى ا عليه وسلّم مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة وكانت بها العزى فأتاها خالد وكانت على ثلاث سمرات فقطع السمرات وهدم البيت الذي كان عليها ثم أتى النبي صلى ا عليه وسلّم فأخبره فقال : [ارجع فإنك لم تصنع شيئا] فرجع خالد فلما أبصرته السدنة وهم حجبتها أمعنوا في الحيل وهم يقولون : يا عزى يا عزى فأتاها خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحثو التراب على رأسها فغمسها بالسيف حتى قتلها ثم رجع إلى رسول ا صلى ا عليه وسلّم فأخبره فقال [تلك العزى !] .

قال ابن إسحاق : وكانت اللات لثقيف بالطائف وكان سدنتها وحجابها بني معتب قلت : وقد بعث إليها رسول ا صلى ا عليه وسلّم المغيرة بن شعبة وأبا سفيان صخر بن حرب فهدماها وجعلا مكانها مسجدا بالطائف قال ابن إسحاق : كانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد فبعث رسول ا صلى ا عليه وسلّم إليها أبا سفيان صخر بن حرب فهدمها ويقال علي بن أبي طالب قال : وكانت ذو الخلصة لدوس وخثعم وبجيلة ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة قلت : وكان يقال لها الكعبة اليمانية وللكعبة التي بمكة الكعبة الشامية فبعث إليه رسول ا صلى ا عليه وسلّم جرير بن عبد ا البجلي فهدمه قال : وكانت فلس لطيء ومن يليها بجبل طيء من سلمى وأجا قال ابن هشام : فحدثني بعض أهل العلم أن رسول ا صلى ا عليه وسلّم بعث إليه علي بن أبي طالب فهدمه واصطفى منه سيفين : الرسوب والمخذم فنفله إياهما رسول ا صلى ا عليه وسلّم فهما سيفا علي قال ابن إسحاق : وكان لحمير وأهل اليمن بيت بصنعاء يقال له ريام وذكر أنه كان به كلب أسود وأن الحبرين اللذين ذهبا مع تبع استخرجاه وقتلاه وهدما البيت قال ابن إسحاق : وكانت رضاء بيتا لبني ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم ولها يقول المستوغر بن ربيعة بن كعب بن سعد حين هدمها في الإسلام : .

ولقد شددت على رضاء شدة قتركتها قفرا بقاع أسمحا .

قال ابن هشام : إنه عاش ثلاثمائة وثلاثين سنة وهو القائل : .

ولقد سئمت من الحياة وطولها وعمرت من عدد السنين مئينا .

مائة حدتها بعدها مائتان لي وعمرت من عدد الشهور سنينا .

هل ما بقي إلا كما قد فاتنا يوم يمر وليلة تحدونا .

وقال ابن إسحاق : وكان ذو الكعبات لبكر وتغلب ابني وائل وإياد بسنداد وله يقول أعشى بن قيس بن ثعلبة : .

بين الخورنق والسدير وبارق والبيت ذو الكعبات من سنداد .

ولهذا قال تعالى : { أفرأيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى } ثم قال تعالى : { ألكم الذكر وله الأنثى } أي أتجعلون له ولدا وتجعلون ولده أنثى وتختارون لأنفسكم الذكور فلو اقتسمتم أنتم ومخلوق مثلكم هذه القسمة لكانت { قسمة ضيزى } أي جورا باطلة فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التي لو كانت بين مخلوقين كانت جورا وسفها وقال تعالى منكرا عليهم فيما ابتدعوه وأحدثوه من الكذب والافتراء والكفر من عبادة الأصنام وتسميتها آلهة : { إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم } أي من تلقاء أنفسكم { ما أنزل ا بها من سلطان } أي من حجة { إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس } أي ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم وإلا حظ نفوسهم في رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين { ولقد جاءهم من ربهم الهدى } أي ولقد أرسل ا إليهم الرسل بالحق المنير والحجة القاطعة ومع هذا ما اتبعوا ما جاءوهم به ولا انقادوا له .

ثم قال تعالى : { أم للإنسان ما تمنى } أي ليس كل من تمنى خيرا حصل له { ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب } ما كل من زعم أنه مهتد يكون كما قال ولا كل من ود شيئا يحصل له قال الإمام أحمد : حدثنا إسحاق حدثنا أبو عوانة عن عمر بن أبي سلمة عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم : [إذا تمنى أحدكم فلينظر ما يتمنى فإنه لا يدري ما يكتب له من أمنيته] تفرد به أحمد وقوله : { ف الآخرة والأولى } أي إنما الأمر كله مالك الدنيا والاخرة والمتصرف في الدنيا والاخرة فهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وقوله تعالى : { وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن ا لمن يشاء ويرضى } كقوله : { من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه } { ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له } فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأصنام والأنداد عند ا وهو تعالى لم يشرع عبادتها ولا أذن فيها بل قد نهى عنها على ألسنة جميع رسله وأنزل بالنهي عن ذلك جميع كتبه ؟